وفى الكتاب عيب هو الوضوح فاعرفه . وستقرؤه بلا نصب وتفهمه بلا عناء . ثم يخيل إليك من أجل ذلك أنك كنت تعرف هذا من قبل ، وأنك لم تزد به علما . فرجائى اليك أن توقن أن الأمر ليس كذلك ، وأن الحال على نقيض ذلك .

وأعلم أنه لايعنينى رأيك فيه ، نعم يسرنى أن تمدحه كما يسر الوالد أن تثنى على بنيه . ولكنه لايسوؤنى ان تبسط لسانك فيه ، إذ كنت أعرف بعيوبه ومآخذه منك ، وما أخلقنى أن أضحك من العائبين وأن أخرج لهم لسانى إذ أراهم لايهتدون إلى مايبغون ، وإن كان تحت أنوفهم .

ومهما يكن من الأمر ، وسواء أرضيت أم سخطت ، وشكرت أم جحدت ، فاذكر هداك الله أنك آخر من يحق له أن يزعم أن ثمن الكتاب ضاع عليه . أولى بالشكوى منك الناشر ثم الكاتب .

ولايستطيع امرؤ أن يهمل ماقام به المازنى فى بناء اللغة العربية الحديثة . وربما يعز علينا أن نتصور بعض أطوار اللغة التى تجاوزها المازنى . كانت اللغة أحيانا متثاقلة وقورا ، يرتبط جمالها بتوازن عباراتها وتشابه أصواتها . وكانت معالم اللغة الأثيرة عند بعض الكتاب تشبه معالم الجمال القديم . تثاقل فى الحركة وميل غريب الى مايشبه الشدو والغناء . وكان إيقاع العبارات ظاهرا يسفر عن نفسه . ولم يكن أحد يبحث عن جمال المشى المتميز من جمال الرقص .

رأى المازنى اللغة أحيانا مثقلة بالفصاحة . يؤخذ وقارها من الكتاب . وتحيا كلماتها بمعزل عن الفرد العادى . وكانت فكرة البيان الساحر عميقة فى الأذهان . وكانت فكرة اللغة الخاصة مسرفة بالغة . فخصوصيتها تصدر عن احترام مثل من اللغة الموروثة .

وكثيرا ما كان الكاتب يفكر ثم يحاول بعد ذلك أن يدخل تفكيره فى حرم اللغة هيابا لايعرف الجسارة . وأسهم المازنى فى الثورة على فتنة اللغة وكرامة الألفاظ غير الشائعة . وبدأ فى التعبير عصرا من الديمقراطية ، وجعل روح هذه الديمقراطية روحا خاصة . وأى معنى لثورة الأدب إذا لم نستطع خلق لغة جديدة .

قاوم المازنى سحر اللغة ، ورأى فيها مظاهر الانفعال الحاد . وهو معنى بالرفق والأناة . كان جمال اللغة مشوبا بالحزونة والشدة . وكان التعبير الجميل تحشد فيه المعانى بعضها فى أثر بعض . وقد تخرج متصادمة بينها وقفات . كل هذا لايمثلنا،ولا